

الأم قدوة لابنتها

للأديب الأستاذ علي السباعي

المدرس بالمدارس الثانوية

هذه فتاة وهذه فتاة ، لم تجاوز واحدة منهما عتبة دارها إلا مع أمها ، ولكن هاتين الفتاتين مع ذلك مختلفتان جد الاختلاف ، وبينهما من التباين في الفكر ، وفي الأمل ، وفي النظر إلى الحياة ما يبعث على التساؤل وإنعام النظر .

ولقد تكون الفتاتان زميلتين في مقعد الدراسة ، أو جارتين في الحى ، أو يربطهما دم مشترك ونسب قريب ، ولكلك إلى ذلك تستفع إلى إحداهما في شأن من شئون الحياة ، ثم تسمع من الأخرى رأيا يخالفه خلافا ما ، وقد يكون التباين بين الرأيين بحيث يظن من يظن أن ليس بين الفتاتين أسرة ، ولم تجمع بينهما في يوم ما وسيلة من وسائل تحصيل العلم أو تجربة من تجارب الحياة .

وأذهب إلى أبعد من ذلك فأزعم أن بنتين لأب واحد قد يختلف تفكيرهما ونظرتهما إلى الحياة وتقديرهما للأمر وحكمهما على بعض ما يعرض لهما من شئون الحياة إذا لم تكونا بنتين لأم واحدة ، وليس الشأن كذلك إذا كانتا أختين شقيقتين لأم وأب .

وعلى العكس من ذلك ترى الأختين لأم واحدة وأبوين مختلفين ، أكثر تقاربا في الميول والأفكار والنظر إلى الحياة .

وفي الريف المصرى ، حيث يبعد الفلاح مشجعات كثيرة على تمدد الزوجات تعيش الضرتان ، أو الضرائر ، في بيت واحد ، تحت حماية رجل واحد ، حيث يأكلن على مائدة مشتركة ، وينمن على فراش قريب ، ويؤدين عملا متشابها ، ولكلك مع ذلك ترى الأختين لأمين وأب واحد يختلفان اختلافا يقرب بكل واحدة من أمها قريبا ما ، ويبعدها عن أختها ، ولقد تجسد واحدة منهما ، وقد تكون الصغرى ، مطمخ أنظار الفتيان ، ومهوى الأنفذة ، يتراحم عليهما الخطاب ، ولا ترى الأخرى إلا متزوية لا تمتد إليها منية ولا تخطر على قلب فتى من فتیان القرية ... إلا أن يكون لأبيها من شخصيته ما يسوى بين البنتين في عيون الطلاب !

هذه المظاهر المتعددة ، وفيها مجال للفكر والنظر ، تفسح السبيل لمن يزعم أن الأم هي البيئة الخاصة لابنتها ، تتأثر بها وتحتذيها أكثر من تأثرها بعامل آخر مما يحيط بها .

وإذا كان من القواعد المقررة عند كل المشتغلين بشؤون الاجتماع ، وشؤون التربية ، أن الأم هي المدرسة الأولى التي يتلقى عنها الولد - صبيا أو فتاة - أول درس من دروس الحياة ، فليس من شك أن تأثير الأم في ابنتها هو أبعد مدى وأنفذ عمقا من تأثيرها في ابنها فإن البنت هي الصورة المصغرة للأم ، وهي بطبيعتها الأنثوية أقرب إلى أمها وأقدر على فهمها وإدراك عواطفها ، على حين قد يتمرد الفتى منذ الصغر على أمه حين يشعر أن له طبيعة غير طبيعتها تجذب إليه أن يصطنع أسلوب الرجال في حديثه وفي عمله وإن لم يبلغ بعد مبلغ الرجال !

ولقد يبلغ تمرد الفتى على أمه مبلغا من الشذوذ يتخذ صورة مؤسفة حينما ومضحكة أحيانا ، وذلك حين يتوى في نفسه الشعور بأن طبيعته الذكورية تمنحه الحق في أن يسيطر سيطرة الرجل ، فثمة الطفل الغيور الذي يأبى على أمه أن تكشف وجهها للرجال فيرعد ويغلي دمه إن رآها مرة تتحدث إلى رجل قد يكون من ذوى قرابتها ، وثمة الطفل المتجاسر الذي يخيل إليه في بعض المواقف أن عليه وحده حماية أمه إن بداله أن أحدا يقصدها بسوء ، وثمة الطفل القوي المتأمر الذي يرى عليه أن يقول لأمه : لماذا عملت ولماذا لم تعملي ؟

مثل هذا التمرد لا ترى مشهدا من مشاهدته فيما يكون بين الأم وابنتها ، إلا في أحوال شاذة لا تصلح للحكم والاستدلال !

وعلى القبيض من ذلك قد تنف البنت من أبيها موقفا ، يشبه من بعض الوجوه موقف الصبي من أمه ، على خلاف يسير يفسره ما في طبيعة البنت من الهدوء والذعة ، وما في طبيعة الصبي من التعالي وحب المناوشة !

وفي هذه الأمثلة ما يؤيد قول القائل : إن البنت هي صنعة أمها !



ونذع هذا . لتنظر نظرة في بعض مشاهداتنا اليومية ، تعينني على توضيح ما أنا بسبيله :

هذه أم تعودت أن تغادر فراشها مبكرة في كل صباح لتنظر في بعض شئونها المنزلية قبل أن يخرج رب الدار ، فتعد الفطور ، وتشرّف على تهيئة تلاميذها للدارس ، وتحضر الشاب لزوجها ، وتضع برنامجها اليومي .

فإذا خرج الرجل إلى عمله ، والأطفال إلى مدارسهم ، شرعت في تنفيذ ما رسمت من خطة وينتهي يومها على ما أرادت .

هذه السيدة لم تكن وحدها في الدار ، فإن وراءها عينا تلاحظها ، عين ابنتها التي تسهر بطبيعتها منذ أدركت أن لها طبيعة غير طبيعة أخيها - تسهر أنها لمثل هذا اليوم يجب أن تعدّ نفسها ، فيكون لها من هذا الشعور ملاحظة قوية ، وحس مرهف ، ورغبة في المحاكاة تهيئها لأن تكون ما تكون .

فما ترى أمها حين تراها وهي تنقل من غرفة إلى غرفة ، ومن عمل إلى عمل ، ولكنها تنظر إلى امرأة تريها ما تكون هي في غد ولا بد أن تكون كذلك ، أو شيئاً يشبه ذلك شها قويا .

وإذا عمات ظروف أخرى في نفسها بعد فترة ما ، بتأثير المدرسة ، أو بتدرج الزمن ، فإن هذه الظروف لن تحو هذه الصورة محو تاما ، ولا بد أن يبقى منها في الواعية العاطفة ظل مرسوم ، كالصورة الحائلة تحت ضوء الشمس ، ان تضيق معالمها ويخفى رسمها إلا بقدار ما يفعل الزمن في المادة ، ويبقى الصلب والأساس .

وهذه أم من طراز آخر : كبعض من نعرف من السيدات في مصر ، لا ترى البيت والزوج والأطفال إلا لهوا من اللهو ومتاعا من متاع الحياة ، تقضى نصف نهارها أمام المرأة ونصفه في الشارع ، من متجر إلى متجر ، أو من زيارة صديقة إلى زيارة صديقة .

هذه السيدة كذلك لا تفعل ما تفعل بنجوة عن الرقيب ، إن عينين نفاذتين تلاحظانها بدقة ، أن عيني ابنتها لا تطرفان ، شاعرة مثل شعور أمها أن هذه هي الأمومة !

أرأيت مرة فتاة في العاشرة تمشي في الشارع مصبغة الشفتين محمرة الخدين مزججة مطرزة ؟

إن هذه الفتاة لا تعرف لهذا الذي صنعت بنفسها معنى كالمعنى الذي تحسه أمها حين تجلس إلى المرأة ساعة أو ساعات تبادلها الرأي فيما تبدوه به جميلة فاتنة . . .

إن غريزتها لم تنضج بعد ، فما يتأق لها أن تحس إحساس أمها حين تبجج وتترن ، ولكنها فعلت بنفسها ما فعلت ، أو فعلت بها أمها ، لأن هذا هو فن الأنوثة ، أو فن الأمومة ، على مقدار ما يدرك عقلها الصغير .

وحين يمضى بها الزمن إلى غايتها فتصير سيدة في بيت ، لن يكون أمام عينيها نموذج تحذيه وتنسخ على متواله ، إلا هذا النموذج الذى شاهدته طفلة ، وتمرت عليه صبية ، وتودته فتاة ، ومهما تهذبها التربية ، ومهما يعلمها الزوج ، ومهما تتطور بها ظروف الزمان ، فلن تستطيع قوة في الوجود أن تباعد بينها وبين هذه الصورة ، أو تحجبها ، إلا بقدر ما تنفس على صفحة المرأة المصقولة ؟ ثم تسطع الصورة !

الأم وبناتها ! ما أشبه الليلة بالبارحة ؟

إن أسطورة من أساطير بني إسرائيل ، تزعم أن حواء لم تكن امرأة واحدة ، ولكنهما امرأتان خلقهما الله على مثال واحد ، فزوج آدم واحدة وترك الأخرى للشيطان ، فلما أراد إبليس أن يبلغ مبلغه في الكيد لآدم ، زين له الأخرى . . . فولدت له . . . فمن بناتها في الأرض بنات ، وما يزال في الأرض من بنات حواء الزوجة . . . !
ما أبدعه رمزا يدل دلالة وينطق بكمكته .

إن حواء التى ولدت شهيرات النساء الالاقى ضربن أرفع الأمثال في العقل والتصرف وحسن التدبير ، غير حواء التى ولدت من لا أسمى من بنات الهوى والدلال .
إن البنت سر أمها ، والولد سر أبيه .



ويقول قائل : إننا نرى أمهات يتعلمن من بناتهن ، وبنات ليس منهن من تشبه أمها . . .

فلا أنكر قول من يقول ، فما يخفى على أن البنت تتعلم من أمها وتعلمها ، وإن تبادل التأثير بينهما لما يقوى الرأى الذى أرى ، فإن الطبيعة المشتركة هى التى جمعت من كل منهما قدوة ومقتدياً ، ولو لم تكن هذه الشركة ما كان التقليد والمحاكاة .

ولكنى أنكر أن تكون بنت ليس فيها مشابهة من أمها ، وإن بدأ ذلك أول ما يبدو للنظرة الحافظة !

هذه العجوز التى لا يعينها من أمر شئ ، إلا أن تنقل بين غرفة النوم والمطبخ وغرفة المائدة ، هى بلا شك ، غير هذه السيدة التى ترى لها في البيت أعمالاً غير ذلك ، إنها ابنتها ، ولكن النظر العابرة تباعد بينهما في رأى العين .

ولكن ، اجلس ساعة إلى هذه العجوز المدبرة واسألها أن تقص عليك من ماضيها . . .

ثم اجلس إلى هذه الشابة . . . وازن بين رأى ورأى ، وقصة سمعت من الأم ، وقصة سمعت من ابنتها ، ثم ابحث عن الفرق هناك . . .

حدث كليهما على انفراد حديثا من أحديثك ، ثم اسأل كل واحدة منهما الرأى فيا سمعت وضع الرأين فى كفتى ميزان . . .

اعرض عليهما قضية للحل ثم استمع لما يمكن . . .

لا يعنينى كثيرا أن أعرف ماذا قالت الأم وماذا قالت ابنتها فتد تكونان مختلفتين فى ظاهر القول ، ولكن الذى يعنينى أن تكون نقادا يرد البواهر إلى أصولها ، ويحلل كل رأى إلى عاصره ، ويرجع كل حكم إلى العاطفة التى كونته ، وأنا زعيم بعد ذلك أنك ستعرف ، وتحكم ، وترى الرأى الذى أرى : أن البنت سرأ منها !

أيتها الأمهات ، ليتكن تدرين ! .

على السباعى